مدن ومواقع إسلامية
المحاضرة الرابعة
مدينة البصرة
م.م علي احسان عبد علي

البصـــرة

مصرت البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٤ هـ/٦٣٥ م • فهي أول وأقدم الامصار العربية الاسلامية التي انشئت خارج شبه جزيرة العرب • والمعروف أن هذه المدينة قد عاشت ما يقرب من الف عام وهجرت وانتقل سكانها الى المدينة الجديدة التي تقع على مقربة من شط العرب والتي دعيت بأسم المدينة القديمة• ومما لاشك ان جفاف نهر معقل الذي كان يغذي المدينة بالماء كان العامل الاساسي في أندثارهـــا • وجاء دور الجهل والمناخ والملح ليحول اطلالها الـــى تلول ووديان تنتشـــر على مســـاحة من الارض تبعد حوالي ١٤ كيلومترا جنوب غربي البصرة الحديثة ، وتجاور مدينة الزبير شرقا • وامتدت ابنية مدينة الزبير خلال الســـنوات القريبة الماضية فغطت اجزاء مهمة من اثار بصرة عتبة بن غزوان من الناحيـــة الغربية والشـــمالية الغربية •

لم يبق من آثار البصرة الشاخصة الا جزء من مسجدها الجامع الذي جدد ووسع وعمر عدة مرات كان آخرها ما أمر به الخليفة العباسي المستنصر بالله عام ٦٢٤ هـ/١٢٢١ م حيث اعاد اليه بهجته وعظمته فأشتهر بفخامة بنائه ودقة نقوشه وارتفاع اعمدته وحلية سقفه• وكل ما تبقى من هذه العمارة الركن الشمالي الغربي وقاعدة المأذنة التي كانت ترتكز عليه (لوح ١) واروع ما في هذا الجزء الحشوات الزخرفية المحفورة في الآجر التي تزين قاعـــدة المأذنة• والحقيقة ان الجهات المعنية قامت بتحري موقع مسجد البصرة الجامع فتوصلت الى نتائج مهمة تخص مساحته وتخطيطه وتصميمه خصوصا على عهد زياد بن أبيه الذي ولي المدينة بين سنتي ٤٥ـــ٥٥ هـ / ٦٦٥ـــ٦٧٥ م • وقد ورد بان هذا الوالي جدد الجامع وبناه بالطابوق والجص ورفع سقفه على اعمدة حجرية ثم جعل له مقصورة ومأذنة وامدتنا كتب التاريخ والجغرافية

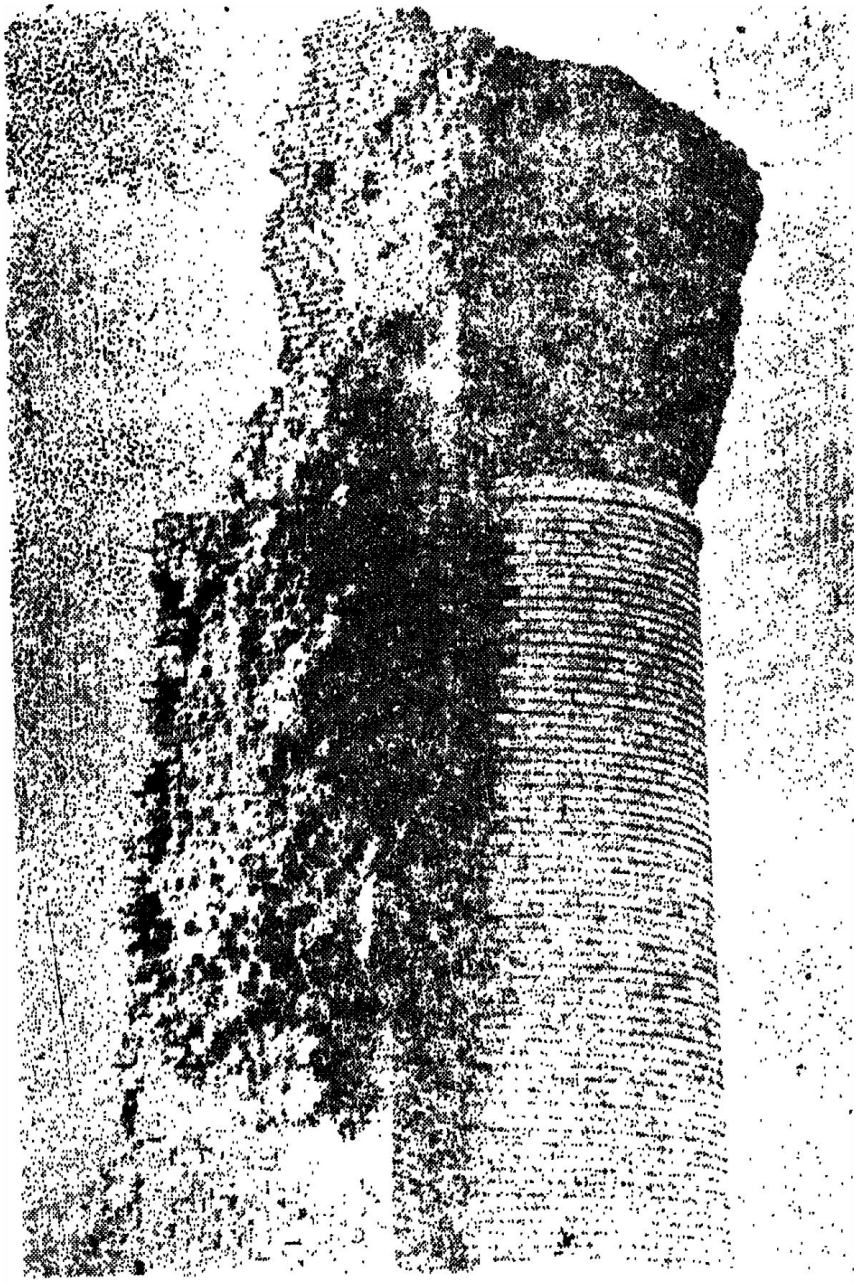

لوح – ١

قاعدة مأذنة جامع البصرة وماتبقى من الركن الشمالي الغربي

بمعلومات قيمة عن الزيادات والتعميرات والتوسعات التي طرأت على هـذا المسجد الجامع في العهد العباسي .

راودت القائد عتبة بن غزوان احد قادة الجيش العربي الاسلامـي في العراق فكرة انشاء مقر دائم لجيشه بعد ان افلح في تحرير عدد من اقاليـم الخليج العربي واجزاء واسعة من جنوبي العراق . فكتب بذلك الى الخليفة عمر بن الخطاب عام ١٤ هـ / ٦٣٥ م ماكان يدور بذهنه معبرا عن ذلك بماقل ودل فقال « انه لابد للمسلمين من منزل يشتون به اذا شتوا ويسكنون فيه اذا أنصرفوا من غزوهم » . وافق الخليفة على ذلك وكتب الى عتبة بن غزوان قائلا « أن أجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبا من الماء والمرعى واكتب الي بصفته » . سر قائد الجيش العربي الاسلامي بتوجيه الخليفةوباشر البحث عن المكان المناسب الذي يتلاءم ورغبة الخليفة وتوجهياته . وكان جيشـ عتبة بن غزوان يعسكر انذاك في موقع يدعى الخريبة . وبعد استطـلاع وتحريات وقع اختيار عتبة على مكان مناسب وصفه للخليفة بقوله : « اني وجدت ارضا كثيرة القصب في طرف البر الى الريف دونها مناقع ماء فيهـا قصب » . أقر الخليفة رأي عتبة بن غزوان ورد عليه أن « هذه أرض نضرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب » . وأمره بأن ينزلها الناس فأنزلهم اياها . ويظهر ان أسم المدينة قد اشتق من صفة الارض المختارة . فقـد وصفت بانها : « أرض غليظة فيها حجارة بيض صلاب وارض هذه صفتها تدعى البصرة » . وجاء ان البقعة كانت ارضا بكرا خلوا من الابنية الا بعض مسالح قديمة وقصر قديم . اوكل قائد الجيش العربي الاسلامي عتبـة بن غزوان أنزال الجيش الى أبي الحرباء عاصم بن دلف من تميم وذكر ان القائد نفسه قد حدد المسجد الجامع في وسط المدينـة . واستعمل القصب فـي البداية كمادة في بناء الدور وتحديد المرافق ، وكان القصب يجمـع ويحزم

ويخزن عندما يتحرك الجيش الى أمام ومن ثم يعاد ترتيبه اذا ما عاد الجيش الى البصرة • وحدث بعد سنوات أن تعرضت البصرة الى حريق أتى على المادة الانشائية المستخدمة ، فتنبه الى ذلك والي البصرة أبو موسى الاشعري فأقترح على الخليفة عمر بن الخطاب أن يعاد بناء الدور والمرافق باللبن والطين بدلا من القصب • وافق الخليفة على مقترح الوالي وأرفق ذلك بتصميم هندسي متقن للمدينة • ويعتبر بحق نقلة نوعية واضافة كبيرة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية • فقد اعتمد هذا التخطيط عند أنشاء المدن العربية الاسلامية في العراق وبعد بناء البصرة •

كان الاسلام القضية المركزية في حياة العرب المسلمين ، وكان المسجد ومازال المكان الذي تمارس فيه طقوس الدين ، فشغل المسجد الجامع في المدن العربية الاسلامية مراكزها فله مكانة القلب في الجسم منه تتفرع الشرايين وفيه تصب الاوردة • فجعل وسط المدينة المسجد الجامع ودار الامارة ويحيط بهما فضاء تؤدي اليه الشوارع التي تفصل بين خطط المدينة وأمر الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ان يكون عرض الشوارع الرئيسية ٤٠ ذراعا متجهة نحو الفضاء الذي يحيط بالمسجد الجامع ودار الامارة • أما الشوارع العرضية أو الثانوية التي تربط بين الشوارع الرئيسية فعرضها ٢٠ ذراعا • وترتبط بين هذه الشوارع الثانوية مع بعضها بأزقة بعرض ٧ أذرع تربط الشوارع الثانوية طولا • وأمر الخليفة ان تكون دور الناس متلاصقة لا يزيد عدد غرف الواحدة منها عن ثلاث وان تتوسط كل محلة رحبة مربعة طول ضلعها ٦٠ ذراعا • وكانت خطط مدينة البصرة قبليه أي جعل أفراد كل قبيلة في محلة خاصة بها •

نمت المدينة بسرعة وتذكر كتب التاريخ ان الخليفة عمر بن الخطاب قد شجع الهجرة اليها • وقيل انه سير اليها سبعين الفا من العرب المسلمين بينهم عدد كبير من الصحابة وكان لهم دور أساس في التحرير ونشر مبادىء

الدين الاسلامي • تصاعد نموها وتميزت في العهد الاموي وظلت أحد المراكز الادارية في العراق وتبوأت مكانة متقدمة في العمران فتوسعت المدينة واستخدم الطابوق والجص في البناء بدلا من الطين واللبن • وأشتهرت بمساجدها وقصورها واسواقها ومنتوجاتها الاقتصادية فزاد عدد سكانها وبلغ ما بين ٣٠٠ ــ ٦٠٠ ألف نسمة •

ارتفعت مكانة المدينة في العصر العباسي الاول وقصدها طلاب العلم والمعرفة فتعالت قصورها وتوسعت مساجدها وصارت محط انظار الطامعين في السلطة اعداء الخلافة العباسية • فاحتلها صاحب الزنج وعاث فيها فسادا وتدميرا عام ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م • ولم تسلم من القرامطة فدخلوها عام ٣١١ هـ / ٩٢٣ م وخربوا ودمروا ماشاء لهم التدمير والتخريب• ولكن المدينة انتعشت وحافظت على مكانتها بين مدن انعراق الآهلة وحظيت برعاية الخلفاء العباسيين المتأخرين فعادت أحد أهم المراكز الحضارية في العراق • وذكرها الرحالة والجغرافيون والمؤرخون والى نهاية القرن السابع عشر الميلادي حيث هجرت تماما •